محمد نفاع

وديّة

أقاصيص

١٩٧٨

منشورات عربسك - توزيع دار الأسوار

محتويات الكتاب

	صفحة
★ جهاز العروس	٥
★ القلوظ	١٣
★ وديّة	٢١
★ انفاس الجليل	٤٩
★ جا وقت الغوا	٥٧
★ كيف الهدي صقر ميل الطرفا الى غزالة تحت التينة البريّة على درب العين	٧٩
★ وداعاً افريقيا والى غير لقاء	٨٧

الغلاف : للرسّامة الفلسطينية جمانة الحسيني

صدر عن "منشورات عربسك":

☆ الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد ابي النحس المتشائل
رواية - اميل حبيبي

☆ جسر على نهر حزين — اقاصيص - لمحمد علي طه
☆ من فمك أدينك — قراءات - لسميح القاسم
☆ يوميات شعب — تاريخ - للدكتور اميل توما
☆ وفاء — شعر - لنايف سليم
☆ الأصيلة — اقاصيص - لمحمد نفاع
☆ ثالث اكسيد الكربون — سربية - لسميح القاسم
☆ كفر قاسم — المجزرة السياسية - اميل حبيبي
سميح القاسم - عبد عابدي

☆ وديّة — اقاصيص - لمحمد نفاع

☆ الكتاب القادم - رملة صعبة - رملة جبلية
مذكرات الشاعرة الفلسطينية الكبيرة
فدوى طوقان

جهاز العروس

الحق يقال ان الام ضبطت نفسها الى أقصى حد حتى فى هذا الموقف الحرج . فأى يوم أسعد من ذلك اليوم على نفس الام وقد ازدانت ابنتها الجميلة والتى ترفع الرأس بلبـــاس العرس ، يحيط بها الجهاز فى بقج من الحرير الملون والحقائب التى يعطيها التجار مكرمة مع كل كسوة والتى تحيط بالعروس كما تحيط النجوم بقرص البدر التمام .

واستبعدت الام ان تكون الحقيبتان تحويان كل الكسوة فالحديث عن الكسوة بالذات وليس عن جهاز الخطوبة أو شوفة الخاطر أو العيدية .

ـــ فى أيامنا أمرنا لله كانت الكسوة أربع « خداديات » نخالة وأربعة قنابيز معكمن «الارمغان» «لابو ريشة»مع ثوبين «اقلام السكر » وسبت من خشب الجوز بجارورين . أما اليـــوم فكيف امور دينك ؟؟ مثل أهل بلدك !!كيف عيننا من الناس ؟؟ يكفى ما مر علينا من عذاب وسخرة .

نحن نعرف جيدا أننا فقراء . ففى موسم قطف الذرةقبل عشرات السنين كانت امى تتركنا شهرا كاملا ، تذهب للعمل بالاجرة طيلة النهار ، ثم تجد الوقت لتدور على الحقول وتلتقط

ما تجده بعد الحصاد لتأتى الى البيت بوجه لوحته الشمس وملابس حائلة مغبرة ممزقة وحذاء مهترىء قديم . وتجلب معها قسما من مؤونة البيت وعلفا للدجاجات لا يقل أهمية عن مؤونتنا .

كان عندنا أربعون دجاجة . وقد سمت امى كل واحدة باسمها . فعندنا « نجلاء » و « الديدبا » و « أمجيرش » و « البغيتة » و « الزعراء » ..

وكان بيتنا فى الطرف الغربى للقرية ،وعندما تسلطت شلة من الزعران على دجاج القرية ، تسرق عددا من الطيور، تملصها ملصا وتلتهمها فى ليلة واحدة دون أن تترك أثرا. سلمت دجاجاتنا لان أبى نومه خفيف ، ما أن يحس بأقل طقة فى الدار حتى يفتح الباب ويسعل ويتنحنح غير آبه بعتمة الليل ورياح الشتاء وقصف الرعد . حتى النمس . رغم محاولاته العديدة ، فشل فى الفتك بأى دجاجة وفى موسم تساقط الثلوج نجد أثر أقدامه ، أمام القن ، فيكز أبى على أسنانه متحديا .

ولان العلف لم يكن يكفى كان الدجاج يسرح حتى أذيال الوعر وعندما غف النسر فى هجيرة أحد الايام والدجاج فى القيلولة ، تحت شجرة البطم ، واختطف « نجلاء » تحول البيت الى شبه مأتم . وانقبض أبى الذى لا يستطيع العمل الصعب بسبب سنه وصحته أمام حنق أمى وصياحها الناشف وكأن على والدى أن يطير ليلحق بالنسر ويقشطه « نجلاء » سليمة معافاة وفى جوفها بيضة .

ــ مش ساخيين نذبح « فروج » للاولاد !! قالت امى بحرقة .

صحيح لم نذبح دجاجة من صحة العافية حتى اذا كسرت

رجل دجاجة كانت امى تعالجها حتى النهاية تضع لها لصقة من « السلح الاصفر » . حتى البيض كانت امى تعرف كيف تصرفه من البيت . ففى كل يوم عصرا تفتح باب القن وتأتى « بالشطبة » وتخرج البيض وتقايض به ملحا أو سكرا أو خيطانا وقماشا ، وأحذية مستعملة خلعية غالبا ما تكون أكبر من مقياس أرجلنا كثيرا .

وشد ما تفرح امى عندما تبدأ احدى الدجاجات تلقط القش وترميه على ظهرها فتشدد امى من مراقبتها ودلالها فهى سترخم بالتأكيد وغالبا ما يصدق ظنها حيث تبدأ الدجاجة تقرق وترخم فتضع تحتها (١٥) بيضة كبيرة جديدة منتقاة ولانه لا يوجد لدينا سوى غرفة واحدة كانت امى تضع القرقة فى الغرفة . ومن يومها يمنع الصياح والشيطنة لان القرقة تحب الهدوء .

بكت امى ودعت على نفسها عندما عادت بعد غياب شهر خارج البلد لتجد أن رأس اختى ورأسى ينفلان بالقمل والنمنوم والصيبان . فعمتى لم تنظف علينا كما يجب . واسمعت أبى بعض الكلمات القاسية :

ــ ما بتخاف من الله ؟ يتامى الاولاد ؟ وجه الواحد قد اصبعين من الوسخ ؟

وكان ابى يكظم الحزن والغضب باستسلام مطلق .

لدينا أربع زيتونات واحدة منهن قرقارة شائخة عبارة عن شبشولة صغيرة ، وكنا جميعا حتى أبى نشترك فى جميع التمر ، ونتحدى أمهر « بعارة » أو ديك سمان أو شحرورة فى أن يجد حبة واحدة وراءنا حتى من « العجول » الصغيرة بحجم حبة الحمص . وكان الموسم فى احدى السنوات عبارة عن أربعة امداد من الزيتون ، ويضيع كيسنا الحقير فى المعصرة

بين أكياس الملاكين الكبار والمتوسطين فتردد امى باستسلام:

— الرزق القليل ان ما أغنى يريح ! !

عندما أخذت امى كيس الزيتون الى المعصرة على رأسها قالت لها احدى النساء : أحمل معك نقلة زيتون « كندى » ؟؟

— وندى هو اسم امى — ومدت المرأة لسانها مازحة.

وحز ذلك الاحتقار فى نفس امى وأبى وأنا واختى معا فخذلت امى وبكت بحرقة فواساها أبى :

— الغنى فى وجه الله يا حرمة !!

واذا طبخت امى أكلة المجدرة وهى الطبخة التقليدية كانت تكبل ثلاث ملاعق زيت بملعقة خشب صغيرة وتفتش عن أردا وأصغر رأس بصل مدعية بأننا لا نرغب الزيت والبصل على الطبيخ فنأكل ما تطبخ ويتكرر ذلك يوميا . فمع عصر كل يوم وعندما توشك الشمس أن تغيب وراء جبل الديدباء تترك امى كل عمل قائلة :

— ميعاد معالاة الطبيخ . ثم تبدأ بالعملية .

ويوم أصاب الدجاج مرض الصفرى أكلنا كل الدجاج المريض . وحتى فرقنا على بعض الاقارب ، فقط خمس دجاجات نجت من الموت ولكنهن معلوسات فواحدة تنظر الى السماء باستمرار واخرى تحرك رأسها دائما وبدون مبرر .

هذه هى امى التى تتحسر على الكسوة الحقيرة متذكرة تلك الايام .

واجتمع فى بيتنا عدد من النساء ليباركن بالكسوة فى الظاهر أما الحقيقة فليعرفن عن نواقص هذه الكسوة أو الجديد فيها خاصة اولئك اللواتى يقبل أبناؤهن وبناتهن على

الزواج .ومرة اخرى تنكمش امى وتبدو صغيرة الحجم أمامهن فهذه جارتنا وطفاء ترسل عجيزتها الضخمة الى ثلاث جهات من الفرشة فتملاها تماما . وتمد ساقيها العبلتين محاولة بتصنع أن تكشف عن بياضها المغرى بشكل صارخ وتنظر بقية النساء بحقد على هذا التحدى والاستفزاز ، ويرحن يسترن ما برز من أرجلهن بتقى ظاهر ، أما هى وطفاء فتزداد اظهارا لمحاسنها فتترك النقاب ينزاح عن جانبى وجهها المدور الواسع بحجم المنخل ويتجلى البياض ناصعا تحت اذنيها حيث تنفلت خصلات دقيقة من شعرها الناعم .وعندما قدمت لهم القهوة ستر بقية النساء أفواههن بالنقاب تحفظا من أبى الذى انحط نظره على جارتنا وطفاء بشكل مريح وهى تحدث وتشرب القهوة بلا تكلف .

أخيرا نطقت امى بعد طول صمت :

— أهلا وسهلا الميت ما يحرز العزا .

— من غير الشر ، كسوة مباركة ، الله لا يوقعنا لا فى الزيادة ولا فى النقصان — غمغم النساء ،

الا جارتنا وطفاء :

— حرام يكون البنت حظها ناقص ، طليبها يجيب على مخه ، ماخذ بنت بأربعة وعشرين ضلع ، بنت تامة وسلامة قلبها .

كانت تلك التى ، سلامة قلبها ، صبية كالاخريات وهى التى انتقت ما أرادت .

نسيبتا تك بثلاثين ألف ليرة جهاز عروس غير بقية المصاريف ، لليوم يسد الدين — أكملت الجارة وطفاء .

— لو معى مصارى كانت كلمتى مسموعة . علقت امى.

— مشايخ البلاد نبهوا امبارح فى الاجتماع : ممنوع يكون

الفيد أكثر من عشرين ألف ليرة ، ممنوع الشغل للبنات ، ممنوع الفرجة على التلفزيون ، وممنوع لبس القصير .

ـ خاطر الاجاويد على الرأس فوق العين ـ ردد الجميع . .

وقام أبى بدور الشيخ التقى المحافظ عملا بالقول القائل: حيث لا يوجد رجال حافظ على أن تكون رجلا ، فراح يؤكد على أهمية الطاعة ويسهب فى استعراض عواقب المعصية مستعينا بالامثلة والمواعظ مارا بذكر الاتقياء والصالحين من مثل « عبد الله بن المبارك » و « أحمد السبتى » ، وستنا « رابعة العدوية » ، و « ذى النون المصرى » . وخشع النساء على ذكر الصالحين الفائزين وطأطأن رؤوسهن ينظرن فى الارض بصمت مما شجع أبى على المضى وبحماس أكبر وبصوت أعلى حتى ظننت أن القيامة توشك أن تقوم بعد لحظات بالفعل ، أماأكثرهن خشوعا فكانت جارتنا وطفاء والتى لا تستطيع أن تصمد مطأطأة الرأس مدة طويلة وهى غليظة العنق بهذا الشكل فزرزر العرق على جبهتها وصارت تتنفس بصعوبة وأبى يستشيط حماسا ويسترسل فى الوعظ. وأنهى والدى هذا الدرس فى « أن الرجال قوامون على النساء» و « الله يلعن بذار النساء حتى لو كانت الوالدة منهن » .

وتقبل النساء هذا « الوعظ » بخشوع واستسلام كالمطايا ، الا هى الصبية العروس والتى كانت السبب فى تجمع هذا الوفد من بذار النساء ـ الامهات ـ ، وعندما بدأت الكلام برأس مرفوع غمغم البعض وحاول أبى اسكاتها بشتى التعابير والحركات دون جدوى وحاول منعها بمقاطعتها ولكنها استمرت ، وصارت تنطق بكلمات غيرمألوفة لدى هذا الجمع تماما كما هو مكتوب فى بعض الكتب والجرائد .

قالت أن الكسوة للعريان وأنا مش مزلبطة بخلقة ربى ،

وعندما نكوم الفستان الاحمر على الاصفرعلى الازرق على البنى والاخضر والليلكى نكوم الوف الليرات دينا على قلبى أنا ربة البيت وعلى شريك حياتى ، يعنى « حط حامد على حمود والقرش لا الصفرة ، كل قرش بنقطة عرق ، الشباب يطلع دم قلبها قبل يأتى ما تطلع لقمة العيش . .

ـ يا نارى !! غمغمت واحدة .

الشغل يزيد البنت سترة وشرفا ، والاسعار اليوم نار ومشعلة .

ـ العيشة كلها نار ـ قالت احداهن .

ـ المشايخ بسلامتهم مسكوا ذيل البقرة وتركوا دربها .

ـ الله يسامحك ـ علقت اخرى .

ـ قال التلفزيون حرام ولبس القصير والشغل !! هم بسلامتهم ما رفعوا صوتهم يوم مصادرة الارض ، قديش كان أحلى لو طالبوا بفتح مشاغل فى البلاد شغل بجنب البيت ربح ومستور ، قديش كانوا يكسبوا أجر لو يطالبوا بتعفية الشباب من الجيش الاجبارى ، ميات الشباب من البلد بترتمى ثلاث سنين فى الجيش ، شى يرجع شى ما يرجع.

واشرأبت الاعناق التى كانت مطأطأة وهى تقول أن السمسرة على الارض وعلى أولاد الناس وخدمة الظلام والفساد هى المحرمات . وفغر أبى فاه على هذه الجرأة ، وظهر على امى بعض الاعتزاز المشوب بحيرة .

ـ كسوتى قليلة على قد الحال . وكسوتى الصحيحة هى محبة الناس والادب والضمير والوعى ، والتعاون أجمل كسوة لبلدنا .

ـ الف مبروك ـ كسوة الهناء والتوفيق .

ألقلوط

«ملحم» هو الولد الاكبر لابوين لهما من الصبية خمسة ومن البنات ثلاث وهو مقدم على الزواج بعد أيام وهذا سبب الهمكة فى البيت وعند الجيران وهذا سبب امتلاء الدار بنا نحن الاولاد كل ليلة ، فقد كانت التعليلة بالعرس تستمر أياما وأسابيع . لم تكن الزفة ممنوعة مثل اليوم بل كان يشارك فيها الشيوخ أيضا حول النار المشتعلة للاضاءة والشرر يتطاير وبعضه يحط على اللحى فيمسح ويستمر الناس بالسحجة والدبكة ، وعندما يبدأ الناس برش الملبس على العريس نتهافت نحن الاولاد على الخير . أما اليوم فالمكان يعج بالخرطوش الفارغ من أحجام عديدة . اليوم يحرم الشيوخ الزفاف والفرح الا اذا كان هذا الفرح استقبالا لرجال الحكومة فى المزار قرب قرية حطين المهدمة .

كان ملحم العريس العتيد ينظمنا فى صف واحد كصف العسكر ويدربنا على المشية العسكرية فى باحة الدار مرددين وراءه : عاش القلوط !! ولم يتركنا ليلة واحدة .

الظاهر اننا أعجبنا بهذا النظام والمشية العسكرية فصرنا نطرق أرجلنا بالارض طرقا أشد ونثير الغبار بكثافة

أكثر ويكثر العطاس . وأتقنا ذلك العمل ما عدا « فضل الله » فلم يستطع بأى حال ان يلائم بين حركة يده اليمنى ورجله اليسرى أو يده اليسرى ورجله اليمنى بل يحرك يديه الى الامام والخلف معا ، وانتقل معه هذا الغباء الى المدرسة وكان يلبك المعلم فكلما أراد الاستاذ ضربه — ويحدث ذلك يوميا — بالمسطرة على يده يزيح اليد مرتجفا هلعا مبحلقا فتروح الضربة خائبة بعد أن كانت صائبة ويذهب حماس المعلم سدى بل تسقط المسطرة أحيانا على رجل المعلم وأكثر من ذلك فقد انكسر ظفر الخنصر الطويل المدلل فراح المعلم يزعق وكأنه أضاع كرامته الى الابد ، وفضل الله اليوم فى حرس الحدود .

انتهت السهرة وعدت الى البيت بخفة لئلا أوقظ أبى فيطلب منى أن أغسل رجلى حتى لا أوسخ الفراش وكنت أكره غسل رجلى فى منتصف الليل وكل ليلة وكم من مرة تركت أمى تهىء لى الماء الساخن واللجن والصابونة والليفة لتغسلنى ، لاهرب عاريا الى الطريق خوفا من الصابون الذى يشفط العين ، الشىء الذى أمقته لليوم لكن بتحفظ .

ونقلنا معنا الى البيوت والحارة : عاش القلوط !! وأنا متهيب من سؤال أبى عن القلوط فقد سبق وحدث لى ما يلى :

كنت فى الثامنة من عمرى عندما ذهبت مع امرأتين من الاقارب والجيران للحطب الى الارض الشرقية البعيدة فى ظهيرة النهار خوفا من حارس الاحراش ، وبدأت المرأتان تتحدثان عن شيخ جليل تقى من أتقى الشيوخ اسمه « الشيخ دحنون » ولم تكن الكلمة غريبة على اذ كنا نطلق هذا الاسم على شقق الفخار والزجاج الملون ونسمى الواحدة «دحنونة» . وسألتنى احداهن ان كنت سمعت بهذا الشيخ فأجبت بالنفى

حتى ليصعب الاهتداء على الطريق . وعندها أيضا كانت آثار الوحوش على الثلج ونحن نلحق بها . يومها ، كان الوادى مجنونا يهدر ويبقبق فيه الماء المنهال اليه من ذوبان الثلج ، واختط الوادى مجراه واضحا أسود وسط هذا العالم الناصع .

عندما حدثنا فى القرية عن مناظر الثلج والوعر والوحوش وطيور القبر والشجر المكسر تحت وطأة الحمل ، عن الرعد العميق وصوت الريح فى البعد لم يلتفتوا فى البلد الى كل ذلك بل سرد أحد الشيوخ الحادثة التالية :

— يومها كانت البلد على عقار ثلجة كبيرة لم تشهد مثلها وظلت الماشية جمعتين بلا طعام الا ما يسد الرمق ، وفى النهاية صحا الجو واشمس وهدر الوادى العميق وحمل ، وكما يقال : اذا الوادى حمل خطف الجمل . يومها كان « الملتزم » ينتقل من بلد الى بلد . أنتم لا تعرفون الملتزم ، كان رجلا جهاما يكاد الدم يفر من وجهه الواسع المدور مثل طارة المنخل ، يدفع الضرائب عن البلد ويأخذ حصته من الغلة فى البيدر . كان فى البداية رجلا طيبا يساعد الناس ويسعفهم بالمال والحاجيات فأحبه الجميع ، ثم عاد الى أصله ، كسابقه ، فانقلب غيمة سوداء غاضبا قاسيا يشتم ويهين ويضرب ، ينهب ويسلب ويرسل الى الحبس فازداد الناس فقرا على فقر اذ كان يأخذ ، بالباطل ، أكثر مما يأخذ بالحق وتراكمت الديون على الناس ولم يبق للفلاحين سوى ربع الغلة والبذار ، وعندما اعتدى على شرف البلد فى عقر الدار وحاول اغتصاب احدى صبايا القرية قرب الداخون ، اجتمع الناس وناموا على أمر . كان على الملتزم أن يغادر البلد يرافقه زلمته عبر الوادى . وهناك

بعد أيام احتجنا للسلاح وكله مهرب .

فقد جاء القائد الى البلد وأعلمنا أنه مع دغشة الغد ستمر قافلة للانكليز قرب قرية « فراضة » وان قوات الثوار تستعد للمعركة .

غادرنا القرية حوالى منتصف الليل ، كانت القرية نائمة تماما الا من سعال يسمع هنا وهناك والا من « دار كنج » حيث يقضى الرجل وحرمته الليل فى الحديث عن العترات والارض والبذار والزوادة والفدان وكيف ان شروالـه وسترته بحاجة الى ترقيع وعشرات المواضيع الاخرى . كان الوعر هادئا والجو رطبا بعض الشيء وراح ينتعف حصى الوادى تحت أقدامنا وصراصير الليل تزغرد باطمئنان ورتابة ومن بعيد أطلت جبال « أبو الشبه » و « الشقيف » وعندما لم نعد نسمع خرير الماء الجارى فى العين لاح لنا مع الشفق شبح رجل ، صفرنا فاتجه صوبنا ورد بصفير مماثل .

وكمنا على جانبى الطريق المعبد عدة كمائن من قرى « فراضة وعين الزيتون والسموع وكفر عنان وميرون » ومن قرانا اليوم ، منع التدخين والسعال والانتقال من مكان الى مكان وتدحرج صوت المؤذن ليقطع هدوء الفجر ويملأه . وترامى هدير محرك ، كانت الاوامر تقضى بعدم التعرض للاستكشاف ، وكان « الاستكشاف » مصفحة تحبو ببطء وضجيج على الاسفلت ، كان الوقت وقت لا تعرف فيه الكلب من الذئب ، وانزاح جئير المصفحة غربا ليذوب فى غابات الزيتون التى يضرب بها المثل . بعدها بلحظات سمعنا هديرا ولغطا من المطل ، كان على القافلة أن تهوى فى منحدر شرس قوى وهناك كانت فرقتنا على طرف الكمين وعلى عاتقها البدء

باطلاق النار والقنابل والبقية تتبع ، كنا نسمع قلوبنا تدق والآلية الاولى تقترب من مواجهة موقعنا .

كان القلوط أول من انتخى مطلقا النار فصر حديد الآلة وتحول المكان الى جهنم من البارود . وبوغتت القافلة فارتطمت ببعضها وشبت النار فى بعضها واستغاث الجنود باللغة الانكليزية يرطنون بألم ، وقفز بعضهم الى الشارع يفتشون عن ملاذ ملتفتين هنا وهناك ، كان منهم من يحاول أن يهرب الى أعماق الطريق أو الى أعلى هكذا وبدأوا باطلاق النار والقنابل اليدوية ودارت مصفحة على نفسها تعانى سكرات الخراب والموت . وقتل عدد من الثوار غير قليل قبل أن يتم القضاء على القافلة ونهبت الذخائر والمؤن وتبين أن قائد الكمين قد قتل . وظهر ان القلوط أصيب اصابة بالغة فى احدى خصيتيه بالضبط وهو يتألم بشدة ، يشرب الماء ويأكل بغير وعى .

— يجب نقل الجرحى الليلة الى لبنان . لتهيأ الجمال والدواب !!

وتطوع عدد من الرجال لمرافقة الجرحى ، والطريق الى هناك وعر المسالك كثير المخاطر وبعض الجرحى لا يلتزم الهدوء . وتطلب الامر قضاء بقية اليوم فى الوعر مع الجرحى وظلت طائرة وقحة تملأ العالم ضجيجا .. تعلو وتهبط .. وحامت فوق احدى التلال حيث الارض الكشاف المفلوحة ، وهناك كان أحد الرجال الآمنين الذين لم يشاركوا فى الثورة عائدا الى البلد راكبا فرسه فلم يكترث ، كما يظهر لدوران الطائرة الانكليزية فوقه ولم يرهبها .. ولكن هذه المداعبة الجدية أخذت على خاطره وتضايقت الفرس من الهدير

الصاخب فأطلقت توائمها للريح ، وعبثا أشاح الرجل بحطته البيضاء فوق رأسه ، وعبثا حاول الرجل افهام الطائرة انه ليس من المقصودين ، كما سمعنا عن ذلك فيما بعد ، وسمعت هدة عظيمة تلاها الصمت .. أما نحن فسترنا الجمال والرجال تماما فى الغابة وقطعنا فروع السنديان للتمويه التام ، وفهم الجرحى خطورة الموقف فاكتفوا بالصر على الاسنان وابتلاع الالم .

ومع أول الليل بدأنا مشوارنا الطويل خلال الاودية الرطبة الباردة والتلال نخترق نتفا من الضباب الذى يحبو بهدوء الى أفواه الوديان وبطون الجبال .

لم نشعر الجرحى بأن الانين على الجمل الرابع فى القافلة قد انقطع تماما وان الثقل على ظهره قد خف ، لقد أسلم أحدهم الروح . وأفهمنا أحد المرافقين ان نتقدم قليلا بالميت وهو على أتم علم بالمكان وسار أمامنا محيدا عن الطريق الى فجوة بين صخرتين حيث وضع الرجل وغطى بالتراب والحجارة فى أهدأ مأتم وأهدأ مكان . وكم من مرة ساقتنى الظروف الى تلك الناحية وفى كل مرة أستذكر الاحداث والملم شتات الذكرى وألقى نظرة على فجوة ضيقة بين صخرتين غطى قعرها بالحجارة والتراب . دون أن نندب : « يا ظلام القبر خيم » !!

وصلنا الى أخطر قسم فى الطريق ، الى الشارع الوحيد فى تلك المنطقة وعلينا اجتيازه ، تفصلنا عنه ضربة حجر ، كان الشارع ميتا من كل حركة ولكن له وهرة وهو يتلوى فى ابط الجبل فوقنا وهناك وجدنا رجلى الاستطلاع بانتظارنا فأشاروا بالعودة الى الوراء قليلا حتى ينكشف الشارع أكثر ولئلا نقترب من غثلة خوف المداهمة ، وتقدم الاثنان أمامنا ونحن

نصيخ السمع ونرشق نظرات طويلة صوب طرفى الطريق المعبد ، ووقف الرجلان لحظات دون اشارة ، ورأيناهما فى أفق المكان كمن يتجادلان بحركات من الايدى وأخيرا أومأ لنا بالاسراع وغدت القافلة السير بهدوء متوتر وتعالت دقات القلوب ، وبان اسفلت الشارع واضحا ، كان شىء ما مرميا على الطريق ، وطلب منا الاسراع فأسرعنا ، ثم أفهمنا المرافقان انه يوجد قتيل على الشارع وانهما قاما بحركة ثم نقفاه بالحجارة فلم يتحرك واقتربا منه فالفياه جثة رجل .

وعلى تلة بعيدة الى الشمال الشرقى ينبعث ضوء من مركز للجيش الانكليزى يتصل بالطريق العام ، كنا قد قطعنا الاسفلت تماما وتعلقنا فى أرض نصف وعرية تمر فيها الحدود . وانهلنا على شريط الحدود نقطعه بما معنا من أدوات مختلفة بعضها يصلح وبعضها لا يمت لهذا العمل بصلة ودخل الجرحى الى لبنان . وشعرنا بحمل ثقيل ينزاح عن ظهورنا ويضغط قلوبنا ونحن عائدون فقد أصبح الجرحى بأمان وتخلصنا من الجمال .

ـ والان نستطيع ان نسير بخفة أكثر وبلا خوف فأرجلنا معنا وسلاحنا معنا !!

عبثا حاولنا اقناع « محمود » أن يهدأ ولكنه أصر على الحداء واطلاق النار فرحا بالانتصار وبسلامة الجرحى وكعر صوت البارود فى الاودية والجبال .

ومن يومها نسى الناس الاسم الحقيقى للقلوط وأطلقوا عليه هذا الاسم .

ولذلك يتساءل الناس بحرارة : هل يتزوج القلوط ؟؟

وعندما نراه اليوم يداعب أحفاده نذكر دائما : عاش القلوط .

وديـــة

حطت توالي خيوط الشمس بأناة وكسل على قمة الجبل المتطاول الحجري كالنورج ، والهضاب الحوارية الجرداء الا من بقع معشوشبة وتلة البلان الغزيرة . كان علي ان أقطع مئات الامتار صعداً لأصل مدخل القرية الفوضوي المشوش ، وريح العصر فى آخرها ، فهي وقد خفت حدتها تحرك محتويات الدرب من الورق والقشور والخيوط والريش ، وعلبة سجائر مرمية بشكل رأسي ومتكئة على حجر تهزها الريح دون ان توقعها . والقى المارة نظرة عجلى على الغريب وهم فى الطريق الى شؤنهم الخاصة بعضهم مسرعا لأداء ما عليه ، والبعض يسير الهوينا وملامح وجوههم تقول : يمكن تأجيل ذلك وليس حتما الان ، والاولاد يتمتمون ، يعيدون على الغالب كلمات الوصية وليس للمرة الاولى .

غطست الشمس وتجردت الاشياء الا من لونها الطبيعي فى تلك الآونة ما بين المغيب المبكر و « ضب الرمس » ودلني أحد المارة على البيت المقصود بأسلوب ترحابي طيب

ارتحت له ورحت انتقى كلمة شكر غير عادية فيها حرارة اسديها اليه .

كانت امرأة تحاور آخر دجاجة لادخالها المبيت وولد يسوق بقرة وحمارا وبعض الجديان من المرعى وأطفال يلعبون وسط الطريق المنحدر فسحوا لي ممرا قبل وصولي بخطوات واستغلوا الوقت لرفع بناطيلهم ومسح أنوفهم وارتحت لهذه الامور المألوفة فى اول زيارة لهذه القرية .

فى مدخل البيت قابلتني صبية فى اكثر من مقتبل العمر بقليل ، بسنتين مثلا ... بل بأشهر وأيام ... والاخرى فى مقتبل العمر تماما ولن أتراجع هذه المرة قيد أنملة .

ومررت على نقطتان الفتاة نظرة هادئة متسائلة لطيفةفيها عبسة الاحتشام والمفاجأة . والمنديل الاحمر وضع بشكل ليغطي مؤخرة الرأس فقط ، وتدلى ردنه ليساير الشعر المنفوش الى الوراء قليلا ثم ليقصر بعد ان تطاولت غمرة الشعر الخبيصي اكثر الى اسفل ، وانحطت لجته العنبرية الغامقة المذهبة على الردفين ، وكأن كل شعرة تطاولت على حدة بسبب حداثة الغسل وحداثة الجفاف فبدا فى ذروة حيويته ورونقه ونعومته ، أشقر يشوبه سواد خفيف كالتبر كما أتصوره .

أطلقت كلمتين كيفما اتفق اعبر بهما عن غرضي من الزيارة لصاحب البيت . وردت هي بكلمات فهمت منها ان الان ميعاد وصوله من العمل ودعتني للجلوس بلهجة تنتهي

بمقطع طويل فيه رائحة النداء والاخلاص والرجاء كما رحت أفهم ، وبشكل لا يمكن معه الرفض ، أما هذا التردد الذي اعتراني فيفرضه الموقف احيانا وهكذا كان .

انشغلت بجلو زجاجة القنديل ، تبلل قطعة الليف بالماء والصابون وتضعها فى الزجاجة وترجها عدة مرات فيهتز صدرها بتحفظ وكبرياء هزات رتيبة هادئة ، ورأيت هذه الطريقة فى التنظيف متطورة نسبيا ، لأن أمي كانت تلف قطعة قماش عتيقة على عود تلطخها بالرماد والماء وتديرها فى الزجاجة مخرجة سرسكة حادة ، وكل يوم تفهمنا أمي ان الكاز اليوم وسخ مخلوط بالماء لان الزجاجة تتشحر دائما بشكل غريب ، ولا بأس ان اذكر ان لهذه « المجلاية » مكانها الخاص فى البيت لا ينازعها فيه منازع وكذلك « للشيال » المستعمل لرفع القدر الساخن ، وايضا للعيدان الاربعة محلها الخاص ، وهي عيدان تضعها أمي فى أرض القدر عندما تطبخ ورق العنب او الملفوف والحفحاف خوفا على الطعام من الاحتراق وخسارة راقة كاملة منه وخوفا من ان يلصق الطعام المحروق بقعر الوعاء فيصعب تنظيفه ، ولم تعد تتحمس أمي لطبخ الحفحاف الخشن كجلد الحرذون بعد ان شبهه أبي ببعر الحمير الاغبر ، واضاءت القنديل ووضعت الزجاجة بحذر ومن حركات شفتيها خمنت انها تقول الجملة المألوفة عندنا وقت الاضاءة : الله يمسيكم بالخير يا أهل الخير !!

ونزل ضوء القنديل الباهت المنخفض على صفحة وجهها

وقصر عن انارة البيت كما يجب .

جمعت يدي على شكل قبضة اردت ان اوجهها الى احد ما :

ـ اليوم بلا كهرباء يا مجرمين يا سفلة !! ند عني الصوت رغما مني فتوقفت الفتاة برهة منصتة وخرست انا تماما .

وليس رغما عني القيت على الصبية نظرة :

لها عينان سوداوان واسعتان ووجه ابيض صاف رائق متشرب بحمرة خفيفة حية عذبة كوريقات « الزقوقيا » التي يسمونها فى كتاب المدرسة صابونة الراعي ويسميها البعض « غليون سيدي » ، وشفتها العليا عريضة بشكل جذاب وتحت دقنها « غلغلة » لطيفة متواضعة ناصعة نقية ، واستأذنت فى الانصراف وانا استذكر « غليون سيدي » وكم أجرمنا بحق هذا الزهر البديع ونحن صغارا ، نقطف منه ما شئنا ، اضمومات كاملة نشكها ببعضها لنصنع منها « خرفانا » ، وكم قطفت للمرحومة جدتي من اوراقه الخضراء السميكة اليانعة لتضعها على مكان « الكي » فى رجليها ، وانا لا اذكر جدتي بدون كي فى رجلها لتتخلص من مرض العصبي ، وأمي تحمد الله وتثني عليه لأن كعب رجلها دائما مسطح مشقق يخرج عبره كل العصبي ولذلك لا تشعر بأي ألم ، وعندما كان التشقق أكثر من المألوف كانت تسيخ على النار قطعة من المطاط الاحمر او من لبان البطم الشذي وتسد به الشقوق فى الرجلين وفى كل مرة لا تنسى ان تكرر وتعيد بأن الكافر المرتد يوم القيامة يتشقق كل جسمه ليصبح مأوى

للسحليات والحراذين والافاعي .. الله يحمينا . وتنصحنا ألا نكفر و « نشقع » ونسب الدين ، اما نحن فكنا نستغل فرضة غياب امى لنكر على التشاقيع التى نعرفها كرةواحدة، وهي كثيرة ، .

كان عملي يتطلب ان اعود الى لهذه البلدة فى المستقبل ايضا ولاكثر من مرة رغم بعدها الجدي عن قريتنا .

الأضواء الضعيفة توصوص فى البيوت البسيطة والقرية هادئة وليلها هادىء ، فقد مرت لحظات دون ان اسمع أي صوت فأعجبتني اللعبة ورحت انصت فى برهة واحدة لما اسمع من اصوات :

ـ عندكو روبة يا خديجة ؟؟
ـ ليه هيك كخالتي ؟؟

ثم صوت مطرقة على خشب وشتائم أولاد ونبحة يتيمة من كلب طبعا ، و « يا حضرات المستمعين مساكم الله بالخير » لابن الرافدين باللغة العامية العراقية من دار الاذاعة الاسرائيلية ..

ـ مساك الله بكلب سعران وباللغة العامية والفصحى !! قالها سائق جرار شاب يقف فى الطريق منتظرا وأنصت قليلا عل الشاب يكمل على حديث العم حمدان وأبو اللبن وأبو مطاوع وأبو على وأبو نبيل ....

تحرقت قليلا وأنا أرى نفس الفتاة تفضل الوقوف فى الباص بعد أيام على أن تجلس على المقعد الوحيد الشاغر

تربي . وتكفل أحد الشباب المهذبين واجلسها مكانه .

ـ فى محل !! غمغم اخر لم يرضه ان يكون من هو اشد منه غيرة ونخوة .

وعندما نهضت لأترك الباص تشاغلت بالتفكير والنظر الى الارض لأعبر عن عدم اكتراثي كما يفعل الاخرون تماما . وأمقت منظر الباص المكمل المجمع وهو يوليني مؤخرته العريضة مخرجا هديرا وضوضاء مزعجة تاركا اياي وحدي على محطة مقفرة باردة كتب احدهم على لوحتها : سيمون تيبس من البرد يوم السبت ٢٢\شباط وهو ينتظر « ترمب » !!

لا أذكر تفصيلا ما حدث بعد ذلك بأشهر ، ولكني اذكر جيدا اني لمحتها فى احتفال ضخم فى اول ايار شاركت فيه الالوف ، تصغي الى ما يقال بانتباه عجيب .

وتنتظم الامور ، تمتزج الضرورة وسبق الاصرار بالصدف لتكون « ودية » ـ وهو اسم الفتاة ـ وأنا واخرون تحت سقف واحد ، وقد انقسم الحاضرون الى حلقات ، انشغلت كل مجموعة بموضوع خاص . فهنا اثنان يتجادلان فى مسألة فى حساب المثلثات ويرددان كلمات « الظتا » « الجتا » الجافة المكثفة ، وانا شخصيا لا احفظ فى الرياضيات الثانوية غير نظرية فيثاغورس أو نظرية الحمار ورقمها فى الكتاب ٢٩ بل واستطيع ان اسردها غيبا : فى المثلث القائم الزاوية ، مساحة المربع المنشأ على الوتر تساوي مساحة المربعين المنشأين على الضلعين الاخرين .

اقسم أنى لست متأكدا من صحة ما أقول ، واقسم انى لم أرجع لكتاب الهندسة وأنا أكتب هذه الكلمات ، وأكثر من ذلك فكتاب الهندسة هو الوحيد الذى لم أفتحه منذ سنوات وهذا شيء لا يفتخر به وأنا متألم جدا لقصورى وتياستى فى الرياضيات ، وقد استعصت مرة مسألة هندسة على الصف العاشر ، ولا أدرى اذا صعبت على المعلم أيضا الذى راح يسألنا ويشجع دون تجاوب معه الى أن نهض فريد وهو من الطلاب الوسط فوقف قرب اللوح وخاطب الصف : لهذه المسألة حلان ! ! فلم يطق التلاميذ النجباء مثل نبيل ويوسف ونبيه هذا الاستهتار وبدأت تسمع ضحكات مكبوتة مما اضطر الاستاذ الى القول:

ـ طيب هات لنا حلا واحدا ويخلف عليك !!

ولم يوفق فريد لا فى حلين ولا فى حل واحد كذلك .

وفى فرقة اخرى فى الغرفة يلعبون لعبة الشطرنج بجهد وعرق رغم برودة الطقس الليلى ، وأنا لو سئلت عن صورة من أجمل الصور التى شاهدتها لقلت :

كنت فى مؤخرة باص مكتظ جدا بصحبة شباب من قرى الشاغور ، عندما صعدت فتاة تبين أنها سائحة من استراليا ، كانت جميلة جدا ولطيفة جدا مرحةطروبا بدون تعقيد ، وسألت بالانكليزية كيف تصل الى حيفا ، فتبرع لمساعدتها شاب لا يعرف اللغة الانكليزية ، وهو شابمرح لطيف معافى حاول جهده ليتقن هذه اللغة فى لحظات ،وسبح عرقا رغم أننا فى أواسط كانون الثانى ،

وبدأ يلوم نفسه بحرقة ويلوم الفتاة لانها لا تعرف من اللغة العربية غير « مرخبا » وبطلب منه فتحت النافذة لتتسلل منها موجة من الهواء البارد القارس والشباب يضحكون والفتاة « تشقرق » من الضحك وهى ترى الشاب يجده العرق على وجهه وأعلى صدره ، وطلب منها منديلا يمسح به عرقه فأعطته وعاونته فتصبب عرقه أكثر من الاول، وظل الشباب فى مرح وراحوا يسألون بعضهم عن جمع كلمة بنطلون ، وعجة ، فما كان من الشاب واسمه على الا أن سأل : ما هو جمع استراليا ؟ وراح يستقبل الهواء البارد مرددا :

لفلح لفلح يا هوا تهوى تهوى يا على

وقال لى : تعلمت اليوم درسا هو أن أتعلم اللغة الانكليزية .

أما نحن الثلاثة ، هى وأنا وأخاها الاصغر ، فكنا نجلس جلسة احتشام مبالغ فيه . رائع ان تجالس فتاة محافظة تتبين الحيرة والحياء والتلبك فى جبينها وعينيها محافظة تتبين الحيرة والتلبك والحياء فى جبينها وعينيها .

وبدأت الحلقات تنفض تباعا حيث ضب الشطرنج بعصبية وشتم حساب المثلثات شتما قبيحا لا يليق به ، وتطفل البعض ليعرف عما نتحدث ، نحن للحظة قبل أن يغادروا المكان . وارتحت جدا لهذه التطورات .

يصدف أن تلتقى مع أحد المارة فى طريق ضيق فتستعد لتفسح له مجالا ويعمل هو الشىء نفسه فتلتقيان ، وتعود الى الجهة الاخرى من المسرب وهو كذلك ، تعود الى الجانب

الاول لتراه يماشيك وتمضى لحظة خفيفة فيها مسحة من المرح والمتعة هكذا حدث عندما رفعت نظرى فخفضت هى ، ترفع نظرها فأخفض أنا ويتكرر الامر حتى صممت الا أتنازل كالنمر تماما ، اذ يحكى عن النمر أنه لا يشيح نظره اذا دوهم بل يبقى يتفرس . فاذا ما أشحت عنه لحظة انساب مسرعا كالافعوان . وتلاقت نظراتنا ولفترة أطول ، رأيت انسانى العينين ينتقلان فى بياضهما بتؤدة وترقب وبطء مما ذكرنى بتنقل الحارس فى فيلم « معركة على جسر نهر غوام » .

الليل يوغل فى تقدمه ونحن نوغل فى بقائنا بفصل بيننا طاولة ضيقة نريح مرافقنا عليها . والناس فى أعمق ساعات النوم ، والسكون فى الخارج يكاد يكون تاما . وبان ما تحت اذنيها غاية فى الروعة والصفاء وحدة الجمال كوريقات الاقحوان ترف عليه شعيرات واهية من السوالف المترنحة .

لم يكن يقطع ستائر الصمت الا شىء بين الهمس والكلام .. مثل تجربتنا الاولى فى القراءة الصامتة كما طلب المعلم مرة ، ودائما يشرح لنا أن معنى القراءة الصامتة الا تحرك الشفتين بل القراءة بالعين فقط ، وفشلت التجربة الاولى فشلا ذريعا وتحولت غرفة الصف الخامس الى همهمة وهسهسة تتعالى باطراد وكأننا فى تنافس حول هذه القضية بالذات ، وبدأنا نعى ما يطلب منا الا « جمال » فظلت دندنته كصوت المزراب وهو ينزل خيطا دقيقا متقطعا من ماء المطر فى آخر الوجه على حافة البرميل، فما كان من المعلم الا حبس جمال ومعنى الحبس أنه يحرم

من فرصة الغداء ولكن حدث وجاءت سيارة ولاول مرة تحمل سردينا الى البلدة الجبلية البعيدة عن المدينة والبحر وتهافت الناس على السردين فاتوا عليه ، وكنا نحن فى الصف نأمل بحرارة أن يكون أهلنا سمعوا نداء البائع ليشتروا ، وأكثر جملة ترددت عندها « جمال احترم السمكات » فانخذل هذا وتقلص وتجهم ، ولم أشعر الا وأنا اشكل وفدا متطوعا ونرجو المعلم أن يسمح لجمال هذه المرة ولا يحبسه حتى لا يحرم من السمك ، فوافق المعلم « حنا » بتأثر بالغ .

اكتسى وجه الصبية مسحة من النعاس والارق وبقية من تصميم على الاستمرار ، والقنديل الذى يتناقض فيه الزيت بشكل يرسل نورا ضعيفا على صفحةوجهها . ومن خلال حديثها عرفت :

غادر والدها البلد مع غيره من المتشردين فى احداث ال ٤٨ التى يسمونها حرب التحرير وحرب الاستقلال أىتلك الحرب التى تخربت فيها البروة وصفورية والدامون وحطين واخواتهن اللواتى يشكلن رقما من ثلاث خانات ....

وظلت هى وبقية أفراد عائلتها يعيشون على أمل اللقاء ، قالت : قضيت طفولة بائسة وعندما أسمع البعض يتحسرون على أيام الطفولة أشعر بأنى لم أفقد شيئا يذكر فان الفراق والوحدة لم يتركا شيئا ، وبقيت بنتا شعثاء أرعى الطرش فى أرض البلد ولليوم أعرف كل شبر من الارض وهناك كل ذكرياتى ...

أما أنا فأذكر رعاية الماشية جيدا . لم نكن فى الواقع نهتم جدا باشباع الحيوانات الجشعة ، بل كيف نقضىالوقت

فى الوعر فى أوائل الصيف حيث النهارات الطويلة والحر العنيف نتلهى ببناء البيوت والمسابقة فى الركض ولعبة « الطميمة » وأحيانا بألعاب وتمارين فاحشة مختلطة واعود الى البيت. . ويتفحص أبى خواصر البقر والماعز ليجدها طارقة قافصة من الجوع مثل « الطوط » وأنا أحلف الايمان الفخمة الغليظة واختار من الانبياء الكثيرين أكبرهم قدرا وأجلهم سمعة وقدرة ومركزا تاركا الانبياء الصغار بلا مبالاة فهم لا ينفعون فى مثل هذه الظروف الجدية العصيبة، أحلف بأن البقرات والعنزات الحق عليهم لانهم رفضوا الاكل رغم أنه متوفر والمرعى طيب . اليوم طبعا اعترف بأن هذا كذب لان الماشية لا تعرف الاضراب عن الطعام ولا الاضراب التباطؤى بل تتحين الفرص لتغزو كروم العنب والمشجرات والزرع . وكان أبى يحفظ موعظة عن رجل صالح يحلب العنزة التى تؤدى الزرع على رجمة حجارة لان حليبها يصبح محرما ، ولكن أبى لم يطبق هذه الموعظة على نفسه وغالبا ما يتقاطر الناس على بيتنا صائحين معربدين بأن الاولاد القرود تلهوا عن الطرش فرتع فى القمح أو شجيرات العنب ، وكانوا فى الغالب صادقين الا دار عمى أسعد فاذا صادف ونطت عنزة واحدة على كرمهم وتركت أثرا فقط أو قضمت ورقة واحدة يقيم الدنيا ويقعدها وان الخراب حل فى الكرم . الى أن كان يوم من أيام سنوات الخمسين المبكرة عندما جاء اناس الى القرية ورشوا البيوت بمبيدات قوية فعالة ضد الحشرات فانتهك الذباب ومحق القمل والبراغيث ، واليوم عندما تتطاير أسراب البرغش الطنان تلسع الوجوه وتقض المضاجع يشتم الناس

الحكومة شتما فاحشا لماذا لا ترش البيوت وحولها وتفعل شيئا مع القارص .

يومها صممت حانقا أن أحشوا البقرات حشوا بالطعام حتى لا يتخنصر أبى عابسا ويقول : البقراتقافصات يا محمد ! ! ونسيت زنارى الجلدى فى البيت المرشوش بمبيد الحشرات ، ففتح أبى الباب بضيق نصف فتحة داعيا اياى للاسراع . كانت الرائحة تضايق والذباب يتساقط ولانى لست حشرة لم يضر بى الدواء كما فهمت . وسقت البقر وحيدا الى الوعر حيث ظل نبات « الهنبل » أخضر يانعا ، وشتمت البقر بحنق لان يأكل ويشبع حتى ينقلب بطنه على ظهره والا يسبب لى سواد الوجه والانقباض ، فأكل البقر أكل غيلان وسمع لمضغه صوت لذيذ وتأخرت فى المرعى فأوقدت نارا جلست قربها رغم أن الطقس كن لطيفا ، ولا أدرى كم مضى من الوقت عندما صحوت من غفوة وسط ظلام دامس ، وارتعدت فرائصى جدا وبسرعة وأنا أرى البقر ينفر مهرولا قدر استطاعته تاركا اياى وحيدا ، أخذت عودا مشتعلا ورميته فى غتلة كثيفة ملتفة قرب المكان ارتبت منها ، فسمعت صوتا منكرا يزمر ، عرفت فيه صوت النمر وعرفت أنى فى ورطة فأطلقت العنان لرجلى اللتين سرعان ما تهشمتا من الحجارة والشجر ، وعندها حكيت لابى عما حدث بصوت وقور هلم آملا أنيزداد تقديرا وتنمو كرامتى ولو قيراطا استقبل أبى كل ذلك ببرود معتاد ، بلا أية كلفة أو استهجان وكأنى لم أغف فى الليل والوعر وكأن النمر لم يزمر !! فعتبت وزعلت .

ولذلك رحت افكر ماذا تفعل « ودية » مع الاخرين فى جيل رعاية الماشية وأى الالعاب والتمارين قاموا بها وهل كانت جميلة كاليوم تلك البنت الشعثاء . . .ومرت التصورات أمام مخيلتى بسرعة . وأكملت هى :

عندما صادروا قسما من الارض حلت فى بيتنا نكبة جديدة ، وترانى يومها أنا الطفلة قد كبرت فجأة على هذه المصيبة ، وامى العجوز ، من غيظها وغضبها عادت الى شبابها بنقمة عارمة وصوت مرعب محتار ، وفى كل يوم يكبر شعورنا بأن أرضنا باقية كما كانت رغم ما أصابها من تحول وتغير ، تصعد امى الى السطح ويحط نظرها على الارض السليبة وتقول أشياء كثيرة بين سيرها وخالقها . . . .

المستشفى الحكومى فى صفد يطل على جانب من أرض الخيط السليبة ، وفى ساحة المستشفى التقيت بأحد أبناء قريتى فحدثنى بما يلى :

جئنا مرة الى أرض الخيط بعد مصادرتها لجمع البقول المبكرة والفطر ، وكان أشدنا حماسا الشيخ أبو عاصى فقد دبر حمولة السيارة على العكاز وفى طرقات القرية المعتمة الموحلة الضيقة المليئة بالشحاليط وازلق ، ولا أعرف اذا نام الشيخ فى تلك الليلة لان هذا هو مشواره الاول لارض الخيط بعد أن غابت عنه عشرين سنة بسبب المصادرة من أجل المحافظة على أمن الدولة ، وكان مدى استيعاب الناس لحجة المحافظة على الامن مثل استيعابى للغة « السواحلية » أو الهيروغليفية ، فهم لم يستطيعوا الربط وايجاد العلاقة

بين نهب الارض وأمن الدولة . واليوم بعد أن فرضوا التجنيد الاجبارى علينا من المفروض أن تبطل حجتهم ، والناس عندنا لا يكرهون الدولة فهذا سيدى حسن ظلت الدولة تطالبه بضريبة الدخل وهو فى سن التسعين وبمبالغ كبعر الماعز ودعس الجمال لقافلة مسافرة الى اسطنبول ، فيأتى الى أنا المتعلم قليلا فارعا دارعا مهرولا ناسيا أنه ابن تسعين ويطلب منى أن أكتب أكثر من اعتراض وعلى ورق وصايا كبير ، ويبدأ يشرح عجزه وضيق حاله أمامى بحرقة وحرارة وكأنى أنا موظف الضريبة أو مأمور التقدير أو الدولة بحالها ويصر كل مرة أن أنهى الاعتراض بهذه الكلمات :

دولتنا اسرائيل الله يحميها نكدتنا زلبطتنا وخلتنا نطحن على الديك ، لا أيام عبد الحميد ولا طل الخبر ، عاملونا بالحسنى لان الله يحب المحسنين .

وصلنا الى أرض الخيط — أكمل محدثى — وأنزلنا الاكياس والسلال . كان الجو ماطرا باردا ، ولم يجد الشيخ مكانا لائذا يبول فيه غير حافة السيارة جنبنا فراح بيد واحدة يستعين ليبول وباليد الاخرى يشير : هذا الموقع اسمه « وعرة زيادة » وهناك « باب المغر » وموارس الحرية وأبو هبلا والسرير وعيون العرب ومرج الغزلان . . . وعدد كل مواقع الارض فى لحظات .

لم نعرف نحن أين ننظر هل الى مواقع الارض أو الى كيف يبول الشيخ وهل نضحك وهو يواجهنا بهذا المنظر ؟؟

لكن الشيخ بدأ يشهق وتخضلت لحيته بالدموع ورذاذ المطر وعلا نحيبه وكأنه وراء جنازة غالية ، ولم يجمع شيئا

من البقول والفطر بل قضى النهار سائحا فى الارض ومغر من الفلاحين . وجد الارض ورآها ولكنه لم يجد ما أنبتته من أعشاب برية . كان الوحيد الذى لم ينظف حذاءه من وحل أرض الخيط ونحن نصعد السيارة .

وتابعت ودية :

امى لا تزال عبدة للارض الباقية الى اليوم . كانت ولا تزال تسبق الطيور فى النهوض والوصول الى الحقل تسابق النمل فى جمع الغلة ، والناس يسمونها نمل الشجر تحمل شيئا الى الارض وتجلب شيئا منها . أخذت بيدها المنجل والمحراث والمذراة ومفراط الزيتون كأقوى رجل ، كانت تنام مريضة منهوكة من التعب تئن طول الليل فنتأكد أنها لن تستطيع الذهاب للحقل فى الصباح . واذا غفت تظل تحرك يديها حركات رتيبة معينة كمن يعزق الارض ويحصد القمح ، فرفضت النوم معها من كثرة اللكمات التى تصيبنى من حركة يدها . ومع دغشة الصباح تراها فى أوج نشاطها وحيويتها وهى تنهضنا . ولها طريقتها الخاصة فى أنهاضنا وايقاظنا فهى تبدأ على النحو التالى وبكل هدوء :

— يمه ! ودية ! بسم الله الرحمن الرحيم ! فلا أنهض وأتناوم فتثنى بصوت مرعب : ودية ! يقصف رقبتك ! قومى يا طرح ! تقوم قيامتك ! .

تتساهل بأشياء كثيرة عدا الكسل والحجج الفارغة للتغيب أو التأخر عن الحقل .

وعندما أراها لا تفلت سنبلة واحدة ، وتحاور كل حجر ونبت غريب لتقلعه وتحافظ على كل كدفة وحبة تراب لئلا تفلت أو توشك على الابتعاد من الارض حيث من المفروض أن تبقى، أعلم أنه لا مناص من اداء كل ما تقول فلا ينفع مع هذه الانسانة التمارض والتعب والشيطنة ، فطريقها واضح سهل مستقيم بلا تعرجات ولا أحجار عثرة ، باختصار لا شيء غير الحقل والعمل .

ولطيلة عشرة أعوام وقفت على لوح الدراس ، أنا والفدان والقش والمساس والملقاة ، وتركت المدرسة فى الصف الرابع ومن كل ما تعلمت أذكر دروس « قمر القمر » و«الخيوط الذهبية » ونشيدا تعلمناه بعد سنة ٤٨ قبل زيارة المفتش فى الصف الرابع اسمه :

فى حمى آسرائيل كل قد ربى

فى سلام وأمان وأبا .

ومن يومها ونحن نعيش فى سلام وأمان .....

أيقظت أخاها الذى غفا منذ ساعات ، وتجبدت بكسل وهى تنهض للنوم فى الغرفة الاخرى مع بقية الاهل ، فبان نحرها الابيض الى ما فوق الصدر بعد ان انشد الثوب قليلا الى أسفل وعندما تمرد هذا الجزء الضيق من الجسد على خدره لم أذكر الا الهلال فى أسبوعه الاول وهذا الجزء المعتم الذى سيتلاشى عندما يصير الهلال بدرا وتوقعت أن ينداح هذا الثوب المعتم الغامق قليلا الى أسفل فى المستقبل واحمرت عندما قلت لها : أنا أعرف لماذا تلبسين الثياب السوداء ، حتى يبدو التناقض مثيرا بين بشرتك البيضاء جدا وثيابك السوداء جدا !!

سعلت امها فى الغرفة الاخرى فصافحتها لاول مرة ، كانت يدها بيضاء كبيرة كشفت عن ساعد مغر استفزازى جذاب فخجلت وانسحبت . وخيم الهدوء ساعة وأنا فى الغرفة وحيدا والليل يضب آخر طياته وأنا بين شفتى الارهاق والنعاس اللذيذين ، وكأننا على موعد دخلت فى الفراش البارد المغرى عندما بدأت القرية تصحو ، ديك يصيح وحمار ينهق وحمام يهدل ورجل يسعل وجرس يرن على عنق بقرة وطير السمان يصدح فى طريق هجرته وهدهد يترنم بصوت فكرت كثيرا بماذا اشبهه فلم اوفق ، وعبر زجاج النافذة لم تكتمل بعد معالم الحقل الاغبر المغبش ، وينزاح دخان السيجارة السام فاسحا الطريق لتمتلىء الغرفة والفراش بنسمات ربيعية عذبة باردة تحمل معها عبق القندول والشيح والثوم البرى وفى قرارة نفسى قرار على أنغام أغنية الفجر والربيع والارض التى كانت قد دخلت فى آلام المخاض لتضع حملها من الزرع والحشيش والاقحوان والبرقوق والحب الربيعى الصافى كالشهد الربيعى أيضا .

انداحت الكلفة بيننا مخلية الطريق لوحدة حال وتعاون والفة تنمو باستمرار مطرزة بخيوط ذهبية من الشوق والارتياح .

أما البنت فى أول عمرها والتى ترمقنى بنظرات ذات ذات مغزى كلما مررت فى طريقى الى البيت فقد تجاهلتها تماما بدون تحامل وظلت فى نظرى طفلة فى طريقها الى الشباب ومن حقها أن تتدخل فى امور الشباب.كنت قد رأيت أولادا فى سنها فى احدى حدائق برلين حيث استضافت

واحتضنت المهرجان العاشر للشباب الدمقراطى العالمى ، لقد انوجدت فى أحد ممرات الحديقة الواسعة قطعة خشب بطول مترين ، ومعظم المشاة يتعثرون بها دون خطر . أما مجموعة الاولاد فقد جلست على العشب تراقب كيف يتعثر كل واحد وبأى طريقة فهذا يكاد يكبح على وجهه ، وآخر يحافظ على اتزانه وينظر شزرا الى الخشبة واخرى تظل تترنح عدة خطوات .. أما الاولاد فلم أر أولادا يضحكون بهذا العزم والضجيج ، ولم أر واحدا من المارة يغضب أو لا يبتسم بل أن بعضهم انضم الى المجموعة المتفرجة ، واعتبرت هذه اللعبة جزءا من المهرجان الرائع الجميل .

وفى القرية نظر الناس الى باحترام وود مبطن مشرب بظلال خفيفة من الشك والتساؤل ، وعرفت أن هذا التقدير منهم للموقف فى منتهى الدقة ، فقلما يخطىء الناس اذا جرؤوا وأخلصوا وقالوا ما فى سرائرهم .. والله أعلم..

لم أتحمل نظرات العجوز البدوية فى محطة السير فى طبرية — والسجع هنا غير مقصود — وهى تسألنى : أنت من الجرمق !! فأومأت موافقا .

— أنت ابن حسين ؟؟

— صحيح !!

— طيب الختيار ؟؟

فحمدت الله وأثنيت عليه وشكرتها : انه بخير.

كاد الحديث ينتهى أو لم أتدارك الموقف . أردت أن

أسألها من العمة ؟ فراحت الكلمة عن بالى .. ان أنعتها بالام .. لم أستملح ذلك ، ولم يؤاتنى الا أن أتفلسف واستعمل كلمة بدوية فقلت :

— مين العجية !! رغم أنها فى حدود الستين وعلى وجهها تغضنات وتجاعيد خفيفة ، ولفت نظرى الوشم الغزير على خديها وذقنها بلونه الخليط من الاخضر والازرق الغامقين . كانت فى صباها رائعة الجمال طويلة ممتلئة حية كما يبدو .

تبسمت بغير اكتراث وقالت :

قل له تسلم عليك بنت عمك « ودية » التى وضعت طبخة « اللبنية » فى عين « السامورة » .

وسبق أن حدثنى أبى بما يلى :

كانت بيوت الشعر منصوبة فى الزابود فوق الطريق وغالبا ما كنا نمر مع أول الفجر من هناك ونحن فى طريقنا الى الخيط لنرى « محسن » مستيقظا يسعل :

— قواك يا ابن عمى !! ونفتح ردن الخيمة لنجد محسن قد أشعل النار وأمامه بكرج القهوة .

— يا هلا باولاد عمنا !! وينادى بصوت أجش غليظ :

— حولوا أولاد عمك يا ودية !!

— يا هلا ومرحبا ..

فتأتى ودية « باللزقيات » المعجونة بالسمن والسكر .

كان محسن صديق القرية وابنها وحامى حريمهـــا وبوشها فى البرارى والوعور حيث يوجد من يسرق ويقتـل ويسلب . وفى العرس ينزل الى الصف يلاعب العصـا ، وتنزل ودية ترقص بالسيف . لم تعرف القرية صبايا فى هذا الجمال والاحتشام والشرف الرفيع . واليوم يتحدثون عـن سواد عينيها وطول قامتها وشعرها ورموشها ، وعـن وجهها القمحى المحرق بخفة كلهيب النار المزغردة فى الموقد وقد طمر بحطب البطم الشذى .

أنتم لا تعرفون محسن المجدل الشعر وهو يغنى مـن أعماق قلبه على جرة الربابة :

« نيالك يا درب العين ... يا مشوار الصبايـا
بتشبع من غمزات العين ... وبتسمع حكايـا »

ولليوم يحفظ الناس اغنية ودية كما يحفظـون بسم الله الرحمن الرحيم وهى تردد :

بيت الشعر يا المبنى ... تحتك حبيبى نايـم
خده يا قرص الجبنـة ... يفطر عليه الصايـم

كان صوتها ملحاحا فى قوته ونقاوته يصغى له الناس أكثر من صوت الناطور فى جوف الليل ، فيه رنة من صوت الفلا والبرية والغدران .

لم أكن أعرف هذا الاحساس المرهف « للختيار » وهـو يحكى بتأثر يعجز عنه أقدر ممثل :

كنت أورد السخول على عين السامورة ، وفى يوم من الايام قالت لى ودية :

— « يا عجى لا تورد هان ودنا نشرب » !!

كانت العين شحيحة ولم أعر هذا الكلام أهمية ، وفى اليوم التالى عافت السخول الشرب ، تشم الماء وتتقزز نافرة منه رغم عطشها .

— آمنت فيك يا اله !! ما لها المبرعزة ؟؟

بعد مدة قالت ودية : حطيت فى العين صحن لبنيـة فعافت الجديان .

صار كل ما حولى «وديات » ومن الصعب أن احـدد عن أى ودية أتحدث ، وضحكت ضحكة مدوية وأنا أتذكـر ما حدث لنا مع أحد المدسوسين من الفسادين العملاء :

كنا نحتفل بذكرى ثورة اكتوبر الاشتراكية ، وامتـلا المكان بالمدعوين كبارا وصغارا ، وحضر هو مع المدعويـن حتى يحفظ أسماء الحاضرين لانه أمى ضعيف النظر زائـد بهلول الى حد ما :

— الكلمة الان للرفيق (....)
— موعدنا الان مع الرفيق (....)
— كلمة الشعر للرفيق (....)
— يا الله كل الشيوعيين اسمهم رفيق ! !